كان لي دب أحمر

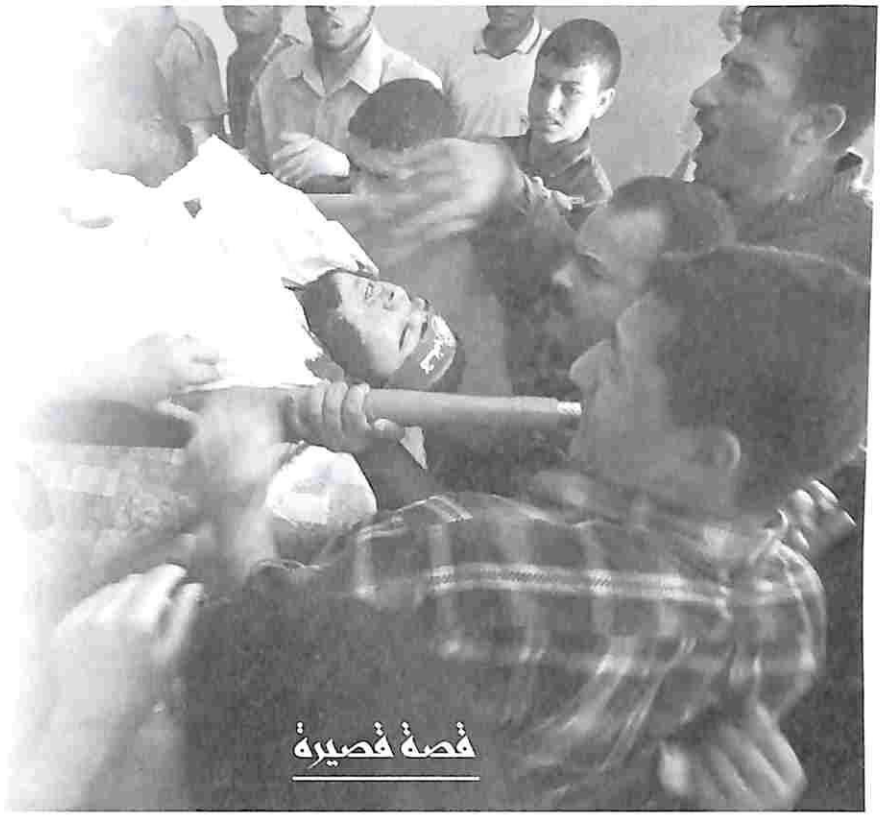

قصة قصيرة

بقلم : محمد منذر قبش
سورية

لطمني بابتسامته الرقيقة وهو يقول:

- لقد انهار دبك الأحمر يا أبي.

ثم انكب على يدي وزرع فيها قبلة حرى طويلة وروى بشرتي بفيض من دمع دافئ واعتدل، سوّى كوفيته الرمادية المرقطة وصوته المتهدج ينساب هادئا:

- ادع لي بالخير يا أبت، وسامحني..

لم يختلج في جسدي عرق واحد، كل ما استرعى انتباهي وهو يخرج من باب الغرفة ذلك القميص الجديد الذي اشتريته له بالأمس، وأحس بالأسف الآن على دفعي ثمنه.

ما إن اختفى عن ناظري حتى أحسست بفيض من حنان جارف يغسل كل ما علق بقلبي تجاهه، وتمنيت لو قلت له: إنني صليت الصبح حاضرا.

تذكرت أيام كنت في مثل سنه، في التاسعة عشرة من عمري، طالبا في كلية الحقوق، كنت أتسلل من البيت في ظلام الليل أتنقل ملاصقا للجدران، أزرع منشورات تدعو إلى الانعتاق من رواسب الرجعية، وتدعو إلى مستقبل مشرق في رحاب المادية والأممية، حيث تتحقق كرامة الإنسان، وتطلقه من أسر الأنانية والجنس والملكية .

دأبت على تلقين فلذة كبدي الوحيد مبادئي ومثلي منذ نعومة أظفاره، لقد شب في بيتي ولم يشهدني أركع لله مرة.

فوجئت في حفل أقامته مدرسته الثانوية لتكريم المتفوقين بولدي يفتتح الحفل بتلاوة من الذكر الحكيم بصوت عذب واثق، وامتلكتني الدهشة وأنا أدعى إلى المنصة معه ليتسلم شهادة ختم القرآن مع الثانوية التي حصل عليها بالترتيب الأول.. يومها اخترقت جسدي كالرصاص كلمات الشيخ وهو يثني على حسن رعايتي لولدي وحرصي على ترسيخ تعاليم الإسلام في يقينه.

في طريق العودة لم ينبس أحد منا بكلمة. كنت أسبقه بنصف خطوة، أمضغ مرارة فشلي في بناء ابني على منهجي.

كنت بارزا في تنظيم سياسي يدعو إلى التمسك بالأرض، ويتطلع واثقا إلى المحافل الدولية على أنها الرحم التي ستنجب شمس الحرية لوطني المحتل، وكنا نؤمن بكل الوعود.

ابني خالد على درجة كبيرة من الكياسة فهو يتجنب دائما الخوض معي في أي حوار حول مسألة تحرير الأرض، وكان ينصت حتى أنهي حديثي، ثم يعلق بهدوء بعد أن يطلق زفرة حرى:

- إن أجل الله لآت.

أعترف أنني كنت أتميز غيظا من رصانته.

مما استرعى انتباهي في الآونة الأخيرة أن تهجده أصبح عادة دائمة جعلته يمضي أكثر ليله في صلاة ومناجاة، وإذا أنكرت عليه ذلك خوفا مني على صحته قال:

- قلبي يحدثني بأنك في الجنة يا أبت، فدعني أعمل ما يقربني إلى جوارك.

ويرفع بصره إلى السماء وخيالات الدموع ترسل بريقا أخاذا عبر النور الخافت في غرفته، فأغلق عليه بابه وأعود آسفا إلى نومي الذي أغط فيه خلال ثوان.

وفي الليلة الماضية صحوت فزعا من نومي على صوت صادر من غرفته، اندفعت أستطلع الأمر فإذا به ساجدا ينتحب ويرتجف، أسرعت إليه أرفعه.. أهزه.. أحدثه ولا يجيب، فانفجرت ساخطا أوبخه:

- لقد عيل صبري، ما هكذا الإسلام.. إن كنت كما تدعي فها هي ذي الانتفاضة تدخل عامها الثالث ولم أرك يوما تسير في مظاهرة، أو تقذف اليهود بحجر.. أم أنك نسيت أن ذروة سنام الإسلام الجهاد؟ وأن رباط ليلة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وأن تعاليم الإسلام كلها تدعو لتربية النفس وتأهيلها لحمل راية لا إله إلا الله والذود عن حمى الإسلام؟.. أم أنك لا تعلم أن الإسلام دين عمل ونشاط وليس دين دروشة وهلوسة؟

إنني أخفي وجهي من نظرات الجيران التي تتهمني بالشيوعية، وتتهمك بالدروشة والتصوف. صحيح أنني شيوعي ولكنني مسلم.. أجل مسلم.. وأعرف من الإسلام أكثر مما تعرف أنت وأمثالك من المتقوقعين!! وانهمر سيل من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة على لساني وأنا أهزه بعنف حتى يسمع ويفهم..

ويثيرني مرة أخرى... فرغم كل الهياج الذي اعتراني.. ورغم كل المواعظ والزجر أراه يحملق بي وعيناه تذرفان الدمع غزيرا، وابتسامته تتسع، وينقض عليّ ليعانقني بقوة رهيبة اعتصرتني بألم، أكبرت معها شدة ولدي.. ومع ذلك دفعته بعيدا عني وقلت له:

- ألا ليت هذه القوة ظهرت في ساحة الجهاد أيها الجبان!!

تركته وخرجت أعبر الباب لا ألوي على شيء، فارتطمت بدرفة الباب نصف المفتوحة.. لم آبه للألم الشديد، دلفت إلى غرفتي أزمجر من الغضب، وصفقت الباب خلفي نظرت إلى المرآة فإذا بقعة حمراء تغطي جبيني.. تذكرت عبرها ذلك الشهيد الذي رأيت الناس يحملونه بالأمس والدماء تغطي وجهه.. وتداعت إلى ذهني تلك الآيات والأحاديث الشريفة والمواعظ التي أمطرت بها ذلك الشيء الذي أكره الآن أن أسميه ولدي، وشعرت بزلزلة هزت كياني وأنا أسترجع عمري الضائع في أكذوبة كبيرة تتداعى بشكل مرعب أمام عيني.

بعد خروج خالد أحسست برغبة عارمة في الانطلاق خارج البيت، ارتديت ملابسي وخرجت رغم أنني لا أخرج عادة في الأيام التي تدعو فيها «حماس» لإضراب عام.. لم أكن أسير كعادتي.. كانت خطواتي سريعة، وقلبي يدق بقوة، وعقلي كبحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج.. يا إلهي ما الذي جرى لي؟.. آيات القرآن تتدحرج على لساني بشكل لم أعهده في نفسي من قبل.. وأندفع في سيري على الرصيف، تهرب للخلف أبواب الحوانيت المقفلة.. وتغزوني نظرات الاستغراب من وجوه ألمحها على عجل هنا وهناك.. وأستمر في اندفاعي لا ألوي على شيء.. ولا أدري إلى أين !!.. ويقذفني الزقاق الضيق إلى الساحة الرحبة لأصحو من خيالاتي على أصوات التكبير.. وأسمع صوتا مدويا:

- إن أرواح الشهداء تستصرخ فيكم النخوة والرجولة، والله يدعوكم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فإن كانت حياتنا ذلا تحت نير الاحتلال فخير منها تلك الجنان.. فما بالنا والله يعدنا بالنصر أو الشهادة..

ويتابع الخطيب الواقف على المنصة وسط الجماهير خطبته.. صوت جهوري قاذف تقشعر لوقعه الأبدان، والجماهير تمور حماسة.. وازداد انفعالا وعلا صوته، وأخذ يلوح بيده عاليا.. سألت رجلا بجانبي:

- من هذا؟

- إنه زعيم الانتفاضة الجديد في الحي.

- ما اسمه؟

- لا أعرف اسمه الحقيقي..

- واسمه الحركي؟..

- خالد بن الوليد..

ارتد بصري إلى الخطيب ولسان حالي يقول بحسرة:

ابني خالد وأنا وليد.. ولكن لم يشأ الله لي أن أحقق حلمي وأنا أسميه خالدا.

ورحت أحملق في هذاالمقدام الذي يلهب مشاعر الجماهير فيعلو التكبير وتشتد الحماسة وكأنه مارد، تصورت رأسه يلتصق بالسماء.. والتفت إلى الجهة الأخرى مخاطبا الجماهير وصُعقت..!! مستحيل.. إنه القميص المشجر الذي رأيت ابني يرتديه في الصباح، وصفعت جبهتي بقوة.. كيف لم أفطن إلى رنة هذا الصوت في أذني؟ واشتعلت نيران في جسدي وصرخت:

- خالـــــد...

واندفعت محاولا اختراق الجموع لأصل إليه في اللحظة التي علت فيها من خلفنا أصوات طلقات نارية أعلنت عن وصول جنود الاحتلال، فاستدرت لأرى أحد الكلاب يصوب بندقيته عاليا قليلا وحدثني قلبي بأنها تتجه إلى صدر ولدي..

وكالسهم اندفعت لأمسك بالبندقية، ولكن بعد أن دوى الرنين بلحظة.. التفت لأجد العملاق محمولا على الأيدي، فأطبقت بيدي على رقبة ذلك القاتل النذل بقوة خيل إليّ معها أن كل المظلومين من عهد هابيل إلى خالد يشدون معي فتدفق الدم ليعم يدي.. واجتمع الجنود حولي أسمع ضجيجهم... وسرت في حلقي حلاوة.. كأنها.. من عسل مصفى. ■

قطع من روح

شعر: أماني حاتم بسيسو*
الأردن

ما أحلى الشعر يردده ... ثغر بسام ينشدهُ
ويصعّد ألحانا حرى ... قد تشقي القلب ، وتسعدهُ
ألحان الشاعر - لو تدري ... قطع من روح تجهدهُ
يسري ليلا ، والكون غفا ... والشعلة تحملها يدهُ
يمسي والفكر يؤرقه ... أحزان الناس تسهّدهُ
تواق ، ينظر للعليا ... لسماء الشعر تَرددهُ
يده تزرع زهرا أرجا ... وتزيل الشوك ، وتبعدهُ
حتى تدمى، لكن عبثا ... لا كف - حنونا - تنجدهُ
قد يبحر عكس التيار ... فتثورُ الناس ، وتنْقذهُ
وتحطم متن سفينته ... في عرض البحر ، وتبعدهُ
لكن الشعر جنى حب ... لا يعطيه مَنْ يَفْقدهُ
ما ساء الطير تَغَنّيه ... أو ضرَّ النجم توقُّدهُ
فالشعر عطاء لا يفنى ... وعطاء المرء ، يخلّدهُ

* فازت بالجائزة الثالثة في مسابقة الأديبات في مجال الشعر بالرابطة.